**افريقيا / مرحلة ما قبل الاستقلال: السمات العامة:**

افريقيا القارة السمراء احدى قارات العالم القديم والتي شهدت اقدم الحضارات الإنسانية (حضارتي وادي النيل الاعلى ولأدنى) والتي لا زالت آثارها شاهدة على عظمة نسان افريقيا وابداعاته، وكانت قبل وصول الاوربيون ليها تعيش في حالة من الامن والاستقرار وتوجد بها **ممالك وسلطنات** بلغت شأنا كبيرا من التطور والعمران ولها نظم حكم مستقرة وان كانت تقوم على النظام القبلي في كثير من الاحيان وكان **الرحالة العرب كالإدريسي وابن جبير وابن بطوطة** قد وصفوا في كتاباتهم وخرائطهم كل ما يتعلق بأفريقيا ،واستفاد الاوربيون من تلك الرحلات والاستكشافات العربية واستغلوها وقاموا **بحركة الكشوف الجغرافية** التي كانت بداية التمهيد للاستعمار الاوربي لأفريقيا وتلت مرحلة الكشوف مرحلة استغلال ثروات افريقيا الطبيعية والبشرية، فبعد ان نهب الاسبان والبرتغاليون معظم المعادن من افريقيا وخاصة الذهب والنحاس والمواد الخام لجأوا الى تهجير شباب افريقيا الى الدنيا الجديدة للعمل كايدي عاملة لاستصلاح الاراضي وتعميرها .. وهكذا شهدت افريقيا احلك فترة في التاريخ وهو العصر الذي استغل فيه الانسان التقدم العلمي من اسلحة وذخائر في اصطياد الانسان لأخيه الانسان كأنه حيوان وقد لاقى الافريقيون صنوفا من انواع العذاب والعنت من( **جراء تجارة الرقيق**) التي كانت وصمة في جبين الانسان الاوربي وقضت هذه التجارة على كل مظاهر الاستقرار والامن في افريقيا وحل الخوف والذعر محلها، ثم اخذت جحافل الاوربيون تتسابق نحو أفريقيا عند قيام الثورة الصناعية لأخذ البقية الباقية من ثروات افريقيا **ومواردها الخام** فكان التسابق الاستعماري المحموم نحو افريقيا ولعبت النزعة الاستعمارية دورا هاما في اذكاء هذا التسابق وتحديد مناطق نفوذ الدول الاوربية، وقد **قاوم الافريقيون** قدوم الاوربيون الى موطنهم منذ اول وهلة وقامت العديد من **الثورات الوطنية** وظهرت عدة بطولات افريقية نادرة هنا وهناك، ورغم ما لعبته هذه الثورات من دور في تقليل الهيمنة الاوربية على افريقيا ،الا ان الاوربيون استعّمروا افريقيا واحتلوها وحاولوا القضاء على معالم الحضارة فيها وخاصة الحضارة العربية الاسلامية بدافع الحقد على المد العربي الاسلامي الذي اجتاح شمال افريقيا. وقد جر الاوربيون الافريقيون الى الدخول في حربين عالميتين في صراعهم مع بعضهم البعض وكان الافريقيون يحاربون في جنب هذه او تلك دون مصلحة لهم ولكن بعض الآراء ترى ان اندلاع هاتين الحربين ودعوات تقرير المصير وقيام منظمتي عصبة الامم ثم الامم المتحدة ساعد معظم الافارقة بمسعاها للفكاك من قبضة الاستعمار في وقت استيقظ فيه الضمير العالمي نابذا الحروب والسيطرة ، وبعد كفاح طويل نال الافريقيون استقلالهم الا ان الحكومات الوطنية اصطدمت بالمشاكل التي خلفها الاستعمار ومعظمها يتصل بالتخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وبذلت محاولات لحلها بتعاون الدول الافريقية . وسنحاول **ان نتلمس واقع افريقيا خلال السيطرة الاوربية وكيف كانت احوال القارة قبل استقلال دول القارة .**

**- الكشوف الجغرافية الأوربية واستعمار القارة الأفريقية**

تمثل قضية الكشوف الجغرافية قصة حیاة الإنسان كلها ، فمنذ أن وجد على الأرض أخذ یتحسس الأماكن التي یمكن أن تلبي مطالب حیاته البسيطة منها والمعقدة ، وما زال یكشف ویسافر ویكتشف ما یعده في نظره مجهولاً من أماكن لمعرفتها أولاً ثم للإفادة منها ثانيا ، وعلى أساس هذا الفهم ما من أمة وجدت على الأرض إلا وقد كشفت جغرافيا وتحسست البلاد الأخرى التي تجهلها كالفینیقین والرومان والإغريق والأحباش والفراعنة والصینیین والمسلمون

حیث حكى التاريخ عن كل هذه الأمم وحملاتها العسكرية وغيرها مما یتعلق بالتجارة والهجرات السلمیة وخلافها وهي أمور لا یمكن أن تتم دون معرفة سابقة بالأماكن المقصودة وما فیها من الأهداف المرجوة **، ویتضح من كل ذلك أن الكشوف الجغرافية هي الأساس في** التعرف على أنحاء العالم وجماعات البشر وموارد الأرض وهي المغذي للفكر الجغرافي بصفة عامة . والكشوف الجغرافية الأوربية لا تخرج بأي حال عن كل ذلك في أي مجهود كشفي قامت به الأمم الأوربية سواء أكان ذلك للقارة الإفريقية أم لآسيا بل وحتى مناطق الهنود الحمر المعروفة الآن بالولايات المتحدة الأمريكية ، علما بأن أوربا قامت بالكشف الجغرافي والاستعمار والاستيطان في عصور نهضتها القديمة إبان الحضارة الرومانية واليونانية وغیرها .

ورغم كون الكشف الجغرافي مهمة فردية في الغالب خلال القرون الاولى الا انه صارت له **جمعيات** تنظمه **وترعى الكاشفين** في العصور المتأخرة، ويمكننا القول ان مرحلة الكشوف الجغرافية لدواخل القارة الافريقية لم تبدا الا مع انشاء (الجمعية الجغرافية) في لندن سنة 1788م لكشف الاجزاء الداخلية من افريقيا بعد قررت البعثات الاوربية الذهاب الى افريقيا لاكتشاف انهارها وثرواتها، وفي هذا الاطار ادت الجمعيات الجغرافية دورا مهما في كشف الانهار واسرار القارة الداخلية واجراء تقييم مهم للثروة المعدنية والزراعية ، **والسؤال المهم هنا ماذا ترتب على الكشوف الجغرافية من نتائج** ؟

للكشوف الجغرافية في افريقيا نتائج عديدة وديناميكية (مستمرة) حتى الوقت الراهن متمثلة في تداعيات الاستعمار بأشكاله المختلفة والعلاقات السالبة والموجبة التي ینتج عنها ما ینتج من مشاكل من حین لآخر ، فمن أهم النتائج السلبية وما ترتب علیها نجد الآتي : - اصبحت القارة الأفريقية مستعمرة من قبل فرنسا وبريطانيا وبلجيكا و إيطاليا وأسبانیا وألمانيا والبرتغال مع أن الأخيرة هي السابقة منذ أمد بعید في الكشف والاستيطان ، وكان من أهم ذرائع السيطرة الاستعمارية حینها أنهم يهدفون إلى نشر الحضارة المتقدمة والمدنية في أرجاء العالم المختلفة رغم أن ذلك الاستعمار كان السبب في العدید من المشاكل التي ما زالت تعاني منها إفريقيا

- استيطان عناصر أوربية في بعض أجزاء أفریقیا خاصة تلك التي تشبه أوربا من حیث الخصائص الجغرافية الطبيعية كمنطقة ألكاب وموزنبيق وكینیا ورودیسیا الجنوبیة والشمالیة وقرب مضیق جبل طارق

- اصبحت إفريقيا تضم أكبر عدد للوحدات السیاسیة تضمه قارة واحدة في العالم

- تم استغلال الكثیر من الموارد الإفريقية من قبل الأوربیین ، اذ قامت صناعات بریطانیة وفرنسیة معتمدة على الخامات الإفريقية وذلك بعد إدخال الاساليب العلمية الحديثة في الزراعة وفي التنقیب عن المعادن

- بذر الأوربيون أوضاعا جغرافية تذكي الصراع والنزاع بین القوميات الإفريقية المختلفة بوضع تقسيم سياسي غريب على المجتمعات وحدود سیاسیة تشق القومية الواحدة لأكثر من دولة وتأليف بین قوميات متناقضة تشتعل بینها حروب يعمل الأوربيون على إذكاءها، فالحدود السیاسیة التي رسمت قصد بها أساساً وضع حالة من عدم الاستقرار وما اجل فرض احكام سيطرتها على القارة ولتنفيذ ذلك اتفقت الدول الاوربية على عقد مؤتمر فيما بينها يتم بموجبه تقسيم القارة وفق اليات جديدة تتفق بموجبها فجاء **عقد مؤتمر برلين ما بين 1884- 1885** وفيه تم الاتفاق على تعيين مناطق النفوذ لكل دولة من الدول على قاعدة التراضي وقسمت القارة الافريقية على حساب شعوبها دون مراعاة لحقوقهم واحترام أملاكهم وتقاليدهم ومقدساتهم الشخصية والقومية، وهذا أدى إلى تقسيم القارة الأفريقية إلى حدود اصطناعية لا تتماشى مع الفواصل البشرية أو الجغرافية وابرز مقررات المؤتمر كانت :

1- تم تأسيس مبدأ حرية الملاحة في نهري النيجر والكونغو مع الحفاظ على جميع حقوق المؤسسات القائمة على المنطقة .

2- تم تحديد حدود المطالبات البرتغالية في أنغولا والموزمبيق، كما وتم الاعتراف بالمطالبات الفرنسية على طول نهر الكونغو، وتم الاعتراف بالرابطة الدولية للكونغو للملك ليوبولد على أنها حكومة الأمر الواقع لحوض الكونغو وتم تسمية الإقليم باسم "ولاية الكونغو الحرة .

3- وافق المؤتمرون على الاستمرار بمحاربة تجارة الرقيق في افريقيا .

4- اتفق المؤتمرون على ان أي دولة اوربية تحتل بلدا افريقيا وتقر الدول الاخرى بهذا الاحتلال يحق لها ان تستعمر هذا البلد فيما بعد، وكان هذا القرار بمثابة الضوء الاخضر للتكالب على افريقيا

5- يُنظر إلى ألمانيا على أنها المستفيد الأكبر من مؤتمر برلين، وذلك لأن الكونغرس حدد حدود المطالب الألمانية في أفريقيا ومعظمها على حساب سلطان زنجبار، وأكد على أن ألمانيا عضو أساسي في الشؤون الدولية .

**ونتيجة لهذا المؤتمر شهدت القارة تكا**لب الدول الاوربية على عقد اتفاقيات مع زعماء القبائل الافريقية وكان مبعوثو الدول الاوربية يجوبون القارة مقدمين الهدايا والرشاوي وتوقيع الاتفاقيات وفي احيان كثيرة لا يدري الافريقي على ماذا وقع ، ولحق هذا المؤتمر مؤتمر آخر كان له اثرا مباشرة على القارة هو: **مؤتمر بروكسل في سنة 1890** م اذي جدد وأيد قرارات مؤتمر برلين، وذهب إلى أبعد من ذلك حيث وضعت إفريقيا على طاولة المفاوضات وقسمت إلى مناطق نفوذ بين الدول الأوروبية ولتعزيز هذه السيطرة عقدت مجموعة من المعاهدات بين الأوربيين والافارقة وبين الأوربيين انفسهم ويمكن الاشارة اليها بالاتي:

\* المعاهدات الثنائية 1885- 1902 مع الافارقة : بعد توقيع مؤتمر برلين أصبح النفوذ الأوروبي عن طريق المعاهدات أهم أساليب تنفيذ تقسيم القارة بين الدول، والتي اتخذت شكلين من:

1- معاهدات تجارة الرقيق والمعاهدات التجارية والتي نتج عنها التدخل السياسي الأوروبي في الشؤون الإفريقية .

2- المعاهدات السياسية التي تخلى الحكام الإفريقيون بموجبها عن سيادهم مقابل الحماية، أو التعهد بعدم الدخول في التزامات تعاهدية مع دول أوروبية، مثل المعاهدة التي وقعتها فرنسا سنة 1888 مع ساموري توري حيث وقعت جنوب النيجر تحت الحماية الفرنسية .

**\*معاهدات التقسيم الأوروبية الثنائية**: وهي الاتفاقيات المشتركة بين دولتين أوروبيتين أو أكثر من أجل تأكيد مناطق النفوذ أو تسوية المشكلات الاقليمية ونزاعات الحدود، وكانت أهدم الاتفاقيات الدتي أبرمت في غربإفريقيا اتفاق ساي بارووا سنة 1980 ، واتفاقية النيجر سنة 1898 م، اللذين أتمت بريطانيا وفرنسا بمقتضاها تقسيم المنطقة، وكذلك الاتفاقية الانكليزية الفرنسية المؤرخة في 31 مارس 1899 م التي حسمت المسألة المصرية .

**وتطبيقا لما تم الاتفاق عليه في مؤتمر برلين ومؤتمر بروكسل تم:**

- **وضع الحدود الاصطناعية** في أفريقيا التي هي حدود مفروضة أو موضوعة إما بحدود فلكية تتبع دائرة عرض أو خط طول أو تنشا عن خطوط اتفاقية هندسية وضعت معظمها على موائد المؤتمرات و كلاها لا يراعي فيه ظروف السكان ورغبات حدود المستعمرات التي أقامها الأوربيون في القارة الأفريقية ومن أمثلة الحدود الصناعية والحدود السياسية ما بين مصر والسودان وهذا النوع من الحدود عكس الحدود الاثنوجرافية أو الحدود القومية التي تعتبر أفضل الحدود جميعا ذلك لأنها تفصل بين الشعوب والقوميات بعضها ببعض الأخر، لكن للأسف قليل جدا من الحدود السياسية في العالم يتفق والحدود الاثنوجرافية، و يرجع هذا إلى عاملين هما :

- الاختلاط والتداخل بين الشعوب بحيث لا يمكن عمل فاصل واضح وعازل بينها وهذا معناه انه لا يمكن تخطيط الحدود التي ترسم لفصل الشعوب فصلا دقيقا، ومن ثم نجد الكثير من الشعوب تتوغل داخل حدود شعوب أخرى مجاورة

- وثانيا أن التخطيط للحدود عادة ما يتم على أسس غير اثنوجرافية بل على الأسس والمصالح الاقتصادية والامبريالية ، وهناك عدة ملاحظات يجب أخذها في الحديث عن الحدود في إفريقيا يمكن تلخيصها في :

- أن الحدود الأفريقية تدخل في فرضها الاعتبار الخارجي الخاص بالاستعمار وما فرضه من تقسيمات تحقيقا لمصالح الدولة الاستعمارية بدلا من الاعتبار الداخلية الخاص بمصالح شعوب لتلك المناطق المستعمرة فالأفريقيون لم يسهموا في الاتفاق على الحدود

- تتميز الحدود في أفريقيا بأنها حدود لا تتبع الظواهر الطبيعية من جبال وانهار، وغيرها وقد وضعت دون حساب للاعتبارات البشرية أو الاقتصادية أو الجغرافية أو غيرها حيث كان الاعتبار الأساس هو الصالح الاستعماري .

- معظم الحدود موجودة على الورق ولم تخط على الطبيعة بينما الخطية هي احد أسس ومقومات الحدود السياسية بحيث يمكن تحديد نطاق الاختصاص الإقليمي للدولة .

**ما بعد مؤتمر برلين** الذي عّد علامة فارقة ومهمة في نشأة معضلة القيادة نحو دولة قومية حديثة، بتقسيم أفريقيا إلى مناطق نفوذ، لم تكن القوى الأوربية تسعى فقط إلى إقامة مراكز حدودية تستطيع من خلالها شن حملات ضد بعضها البعض للحفاظ على هيمنتها الجيوبوليتيكية، بالإضافة إلى تامين مصادر جديدة للمواد الخام التي تحتاج إليها للتوسع في اقتصادياتها الصناعية، بل تعدت القوى الامبريالية الأساليب المادية إلى ما يمكن تسميته**( باستعمار العقل**)، بحيث لم تكن الإدارات الاستعمارية التي تم إنشاؤها معنية بالتنمية الحقيقية للسكان الأصليين وتمكينهم، وكان سبب وجودهم هناك ، إما لضمان تدفق المواد الخام إلى البلدان الحديثة أو لتوفير التمثيل والقدرة التنظيمية للمستوطنين الذين كان يجري تشجيعهم على استعمار الأراضي الجديدة بدعوى تطويرها وتمدين السكان الأصليين.

**- تنامي الولاءات الفرعية**

قدم المفكر الجزائري مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة 1946م مقاربة متميزة للظاهرة الكولونيالية برؤية عميقة ومتميزة ، يشرح فيه أن الاستعمار يفرض على حياة الفرد عامل سلبي يسميه بالمصطلح الرياضي **( المعامل) الاستعماري** وهذا المعامل وضع بطريقة مناسبة لاستقرار والعمل من الانتقاص من قيمة المسْتعَمرين وتحطيم قواهم الكامنة فيهم والحط من قيمة الأهالي وينفذ بطريقة فنية كأنه معامل جبري وضع أمام قيمة كل فرد بقصد التنقيص من قيمته الايجابية، حيث يؤثر المعامل الاستعماري في تضييق نشاط الحياة في البلاد المستعمرة حتى تكون مصبوبة في قالب، يهيئه الاستعمار في كل جزئية من جزئياته، خوفا من أن تتيح الحياة المطلقة لمواهب الإنسان أن تأخذ مجراها الطبيعي إلى النبوغ والعبقرية، ويقول مالك بن نبي: ” إن الاستعمار لا يتصرف في طاقتنا الاجتماعية إلا لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة وأدرك منها مواطن الضعف

أو بمعنى أخر، درس المستَعْمر الأوضاع النفسية والسلبية والاستثمار في مميزات القارة الإفريقية( تعددية أثنية لغوية، دينية) لكبح ايجابيات الفرد في القارة بتفضيل مجموعة أقليات أثنية عن سواها، وذلك عن طريق تسليم السلطة إلى نخب أثنية مختارة مع إقصاء المجموعات الأخرى من خلال سياسات تمييزية، مما شكل سبب رئيسي في خلق و تأجيج الصراع بين المجموعات العرقية المختلفة، التي رأت في ذلك إجحافا في حقها ونوعا من التواطؤ مع المستعمر إذ تحولت تلك النخب إلى ما يشبه مستعمر جديد .